

ميشكا يلتحق بالمقاتلين

تأليف ميخائيل شولوخوف

ترجمة كاظم سعد الدين

مكتبتنا

رواية حرب قصيرة

ميشكا يلتحق بالمقاتلين

تأليف: ميخائيل شولوخوف

ترجمة: كاظم سعد الدين

أرشفة : أحمد نوري



فريق التوثيق الألكتروني

ميشكا يلتحق بالمقاتلين
ترجمة كاظم سعد الدين
الطبعة الاولى ١٩٨٧
جميع الحقوق محفوظة
الناشر دار ثقافة الاطفال ص . ب ٤١ ـ ٨

سلسلة مكتبتنا
تصدر عن قسم البحوث والنشر في دار ثقافة الاطفال
في وزارة الثقافة والاعلام
المدير العام رئيس مجلس الادارة فاروق سلوم
سكرتير تحرير السلسلة فاروق يوسف

ميخائيل شولوخوف

ولد الكاتب الروائي السوفيتي ميخائيل شولوخوف عام ١٩٠٥
في منطقة الدون، من عائلة قوزاقية،
بدأ الكتابة في عام ١٩٢٣. ألّف روايات وقصصا عديدة.

اشهرها «الدون الهادئ» في اربعة اجزاء
استغرقت كتابتها من عام ١٩٢٦ الى عام ١٩٤٠،
وله ايضا «الأرض البكر حرثناها» في جزءين. ترجمت مؤلفاته الى
عشرات اللغات واعيد طبعها مئات
المرات في ملايين النسخ. حاز على جائزة نوبل للآداب.



حلم ميشكا أن جده قطع غصناً لدناً كالسوط من شجرة كرز في البستان وجاء اليه يلوح بالعصا ويقول بصوت صارم:

« تعال هنا ياميشكائيلو فومبج، سأدبغ لك ظهرك؟.»

«لماذا، ياجدي؟» سأله ميشكا.

«لانك سرقت البيض من عش الدجاجة ذات القنزعة وقايضت به لتركب «دولاب الهواء» في المعرض....»

« ولكني لم اركب دولاب الهواء هذه السنة ياجدي!» وبكى ميشكا من الخوف.

ولكن جده مسد لحيته بوقار ثم ضرب قدمه بقوة قائلاً «انبطح وارخ بنطلونك، ايها الوغد!» ونزل عليه بالعصا ضربا..»

اطلق ميشكا صرخة واستيقظ وكان قلبه يدق بعنف ، كأنه ضُرب بالعصا فعلا. وفتح عينه اليسرى ليكشف الامركان الضوء ينتشر في البيت. والفجر يبث الدفء خارج النافذة بعدها رفع ميشكا رأسه وسمع اصواتا في المدخل: كانت امه تثرثر وتغص بالضحك، وجده يسعل وصوت شخص غريب يلعلع: «بروم – بروم – بروم...»

فرك ميشكا عينيه ورأى الباب يفتح بقوة وجده يهرول في ردهة الاستقبال، ونظاراته تتراقص على انفه. ظن ميشكا، بادئ ذي بدء، ان الكاهن قد أتى ومعه جوقة المرتلين (في عيد الفصح احدث جده جلبة ايضا عندما جاء الكاهن) ولكن اندفع الى الردهة بعد جده جندي ضخم يرتدي معطفا اسود ويعتمر قبعة ذات شريط ولكنها بلا حافة ناتئة، وتعلقت الام مطوقة رقبته وهي تهتف عاليا.

وفي وسط الردهة تخلص الغريب من الأم وصاح: «وأين ولدي؟»

ارتعب ميشكا وغاص تحت البطانية.

«مينيو شكا، ياولدي – استيقظ! عاد ابوك من الحرب!» صاحت الأم.

وقبل ان يستجمع ميشكا مافقده من صواب، اختطفه الجندي ورماه الى السقف ثم تلقاه وضمه الى صدره، ووخز شارباه الاحمران شفتي ميشكا وخديه وجفنيه وفيهما شيءٌ مالح ورطب. وحاول ميشكا ان يتخلص منه ولكنه لم يستطع.

«انظرا ماأكبر هذا الولد الذي لدي الآن؟.. سوف يكون اكبر مني!... ها، ها، ها!» هتف الاب وراح يرقص ميشكا، وقد اجلسه على راحة يده الكبيرة، ويديره، ثم يقذف به الى خشبات السقف.

وتحمل ميشكا ذلك قدر استطاعته، وقَطَّب حاجبيه، مثل جده، واتخذ تعبيرا صارما، وقبض على شاربي والده.

«انزلني يا أبي!»

«لا، لن انزلك!»

« انزلني! انا ولد كبير، وانت ترقصني مثل طفل صغير!...» ووضع الاب ميشكا على ركبته وسأله مبتسما:

«حسنا، وكم عمرك، يا ابن البندقية؟»

«ثمانية تقريبا،» تمتم ميشكا.

«وهل تتذكر كيف صنعت لك زورقا في السنة قبل الماضية ياولدي! وهل تتذكر كيف

اطلقناه في البركة؟»

«نعم، اتذكر » صاح ميشكا، والقى ذراعيه خجلا حول رقبة ابيه..

ثم طفق يمرح معه: واجلس الاب ميشكا على كتفيه وأمسك بساقيه وصارا يدوران ويدوران في الردهة. وكان الاب بين حين وآخر يثب ويصهل كالحصان، وميشكا يصيح كالديك مرحا. وأخيرا سحبت الام ردنه وصاحت قائلة:

«اذهب، والعب في ساحة البيت؟... هيا، ايها الوغد!» ثم طلبت الى الاب قائلة: دعه يذهب يافوما اكيميج، دعه يذهب، رجاء! انه لايدعني اتملى بك جيدا، ياطيري اللطيف! لم نلتق سنتين كاملتين، وقد انشغلت به طوال الوقت!»

وانزل الاب الولد ميشكا على الأرض وقال:

«هيا اركض والعب مع الأولاد، وعندما تعود سوف اعطيك بعض الهدايا...

اغلق ميشكا الباب خلفه، وفكر اولاً ان يستمع في المدخل ماذا سيتحدثان في البيت، ولكنه تذكر في الحال: لم يعرف احد من الصبيان لحد الآن ان اباه عاد الى البيت - وعبر الساحة وقطعة الارض المزروعة بالخضار وداس اخاديد البطاطا وانطلق الى البركة كالبرق الخاطف.

وغطس في الماء الراكد، ثم تدحرج على الرمل وغاص مرة اخرى، ثم صار يثب على ساق واحدة، وسحب سرواله الى الاعلى، وهمّ ان يعود الى البيت عندما جاء فتيكا، ابن الكاهن، وقال:

«لا تذهب ياميشكا، دعنا نسبح ونذهب الى بيتنا ونلعب. تقول امي تعال الى بيتنا.»

وسحب ميشكا سرواله الذي انزلق، بيده اليسرى، وعدّل الحمالات على كتفيه، واجابه على مضض:

«أنا لا أريد أن ألعب معك، لان رائحة كريهة تخرج من اذنيك!....

واغمض فيتكا عينه اليسرى نصف اغماضة، حاقدا، وسحب قيصه المحاك من الصوف من كتفيه الضعيفين وقال:

«هذه من داء الملك في التهاب الغدد - وانت، أنت فلاح وقد وجدتك امك تحت السياج؟...»

لعلك رأيتها؟»

بل سمعت ذلك ، عندما اخبرت الطباخة والدني.»

«امك كلبة عجوز كاذبة. ابي قاتل في الحرب - وابوك مصاص دماء، طفيلي.»

وانت لقيط!» صاح ابن الكاهن والسخرية على شفتيه. واختطف ميشكا حصاة مدوّرة، ثم تملقه ابن الكاهن بابتسامة مريضة، وقد كبح دموعه قائلا:

لا تبدأ بالشجار ياميشكا، ولاتغضب. هل تريد خنجري الذي صنعته من حديد؟»

والتمعت عينا ميشكا فرحا والقى الحصاة جانبا، ولكنه تذكر اباه وقال مفتخرا.

«جلب لي ابي خنجرا افضل منه من الحرب!»

«كذاب؟» قال فيتكا غير مصدق.

«انت كذاب!... اذا قلت لك جلبه لي، فقد جلبه لي، اتفهم؟... وكذلك بندقية حقيقية....»

«اتعتبر نفسك شخصا الآن؟» هزأ به فيتكا حسدا.

« ولديه قبعة ذات شرائط، وحروف ذهبية مكتوبة عليها، مثل التي في كتب ابيك.»

وفكر فيتكا برهة كيف يستطيع التغلب على ميشكا، فقطب جبينه، وحك بطنه الشاحب.

«سوف ينال ابي ترقية، وليس ابوك الا راعيا، مارأيك في هذا؟»

فقد ميشكا صبره، وانطلق نحو ارض الخضار، وناداه ابن الكاهن:



«ميشكا ، ميشكا، لدي شيْ اقوله لك!»

«قله اذن.»

تعال اولا!..»

وعاد ميشكا اليه.

«هيا ، قل ماذا عندك؟» قال ذلك وهو ينظر بعين الريبة الى ابن الكاهن.

واخذ فيتكا يرقص على الرمل بساقيه النحيفتين المتقوستين وهو يهتف حاقدا.

«ابوك حرس وطني عندما تموت ستطير روحك الى السماء وسوف يقول الله: يجب ان تذهب الى جهنم لأن أباك حرس وسوف يشويك الشياطين في مقلاتهم؟...»

وانت، لايشوونك ايضا؟»

«.. انت جاهل احمق ، ولاتفهم ابسط الاشياء...»

وصار ميشكا يشعر بالرعب، واستدار وانطلق راكضا الى البيت دون ان يتفوه بكلمة واحدة. وتوقف لدى السياج المنسوج من القصب والاغصان حول مزرعة الخضار. وهز قبضة يده مهددا ابن الكاهن وهتف قائلا:

«سوف أسأل جدي! واذا قال لي أن ذلك كله كذب، فلا تقترب من ساحة بيتنا بعد ذلك.!»

وتسلق السياج وعبر راكضا الى البيت، وكان يتخيل امام عينيه مقلاة وهو جالس فيها والشياطين تقليه. من المرعب ان يجلس في المقلاة، والزيت يفور ويتفرقع حوله وسرت رعدات متوالية في عموده الفقري، واراد أن يرى جده باسرع مايمكن ليسأله ويطمئن قلبه....

ونكاية به، وانحشرت العنزة في الباب الكبير: رأسها في جهة، ومؤخرتها في جهة اخرى، واظلافها تحفر الارض. وتهز ذيلها، وتطلق صرخات تثقب الاذان.

واراد ميشكا ان يساعدها فيخرجها : حاول ان يفتح الباب أوسع ولكنه جعل العنزة تختنق، ثم جلس على ظهرها منفرج الساقين، واجهدت العنزة نفسها ولوت قائمة الباب فانفتح وخرجت تصيح وتركض عبر الفناء الى مكان دراسة الحبوب. وكان ميشكا يضرب جانبيها بعقبيه، فانطلق الاثنان، وكان شعر ميشكا يرفرف في الريح. ونزل عن ظهر العنزة لدى وصولها الى ارض البيدر، ونظر حوله – ورأى جده في الرواق الامامي للبيت يشير اليه باصبعه:

«تعال هنا ياحمامتي الصغيرة؟»

ولم ير شيئا يدل على نقص او خطأ وتذكر مسألة المقلاة الجهنمية، فركض نحوه:

«جدي، جدي، هل حقا توجد شياطين في السماء؟.»

«سأريك الشياطين، وسأضربك ضربا مبرحا. هذا هو الأمر أتركب العنزة ، ياهذا ، ياوغد!»

وامسك ميشكا من شعر ناصيته ونادى امه في البيت.

«تعالي، انظري ابنك البارع!»

وخرجت الام.

« وماذا فعل الأن؟»

«ماذا فعل؟ انا واقف هنا وجاء هو راكبا العنزة وقد اثار الغبار؟»

قالت الأم فاغرة فاها:

«يركب العنزة وهي على وشك ان تلد في اية لحظة؟»

ولم يترك الجد فرصة كافية لميشكا كي يفتح فمه ليبرر عمله، اذ فك حزامه ومسك سرواله بيده اليسرى وحصر رأس ميشكا بين ركبتيه وبيده اليمنى صار يضربه، ويصيح به معنفا طوال الوقت:

«لاتركب العنزة بعد هذا! لاتركب العنزة!»

وكان ميشكا يصرخ، ولكن جده قال:

«اذن انت لاتهتم بابيك، ياغذاء الكلب؟ جاء الى البيت مرهقا كالميت، واضطجع لينام، وأنت تثير كل هذه الضجة؟»

واضطر ميشكا أن يسكت، ،وحاول أن يرفس قصبتي ساقي جده ولكنه لم يستطع ان يصل اليهما. ومسكته امه ودفعته الى داخل الكوخ، واضافت قائلة:

«اجلس هناك أيها الشيطان الصغير. ستسبب الموت لي . ولكني لن أتساهل معك مثل جدك!...»

وجلس الجد في المطبخ على المصطبة، وهو ينظر بين حين واخر الى ظهر ميشكا.

التفت ميشكا اليه، ومسح أخر دمعة بظاهر يده، وقال وهو متأهب لدى باب المطبخ:

«حسنا ياجدي... انتظر!»

«ماهذا ياوغد؟ اتهدد جدك هذه المرة؟»

ورأى ميشكا جده يفك حزامه مرة اخرى، ففتح الباب قليلا تحسبا.

«اذن انت تهددني، ها؟ » اعاد الجد قوله.

واختبق ميشكا وراء الباب تماما ونظر من الشقوق متتبعا حركات جده ، ثم عاد يصيح:
«انتظر ياجدي، انتظر! ستسقط اسنانك ولن امضغ لك شيئا، فلا تطلب مني ذلك!»
وخرج الجد الى الشرفة فرأى رأس ميشكا يعلو ويهبط بين النباتات الخضر. فهز عصاه الثقيلة مهددا اياه، وهو يخفي ابتسامة في لحيته.

دعاه ابوه مينكا، وتدعوه امه مينيوشكا. وجده في لحظات عطفه يدعوه الوغد او النذل وفي الأوقات الأخرى، عندما يقطب حاجبيه الكثين فوق عينيه ، كان يقول:

«هيا، ميخائيل فوميج، تعال هنا. سألكم لك اذنيك؟»

كان ميشكا ضعيفا نوعاًما، وكان شعره في ايام الربيع مثل وريقات زهرة عباد الشمس المتفتحة، وفي شهر حزيران كانت الشمس تقصره وتحوله الى بقع بيض، وترقش خديه بالنمش، حتى يبدو وجهه مثل بيضة عصفور تماما. وكان انفه ينقشر من الشمس والسباحة المستمرة في البركة. كانت ساقاه ضعيفتين ايضا، ولكن فيه سمة واحدة بارزة، عينيه كانتا تتطلعان، من بين جفنين ضيقين، زرقاوين بشيءٌ من الخبث، كانهما رقاقتان من جليد نهر غير ذائب.

كان والد ميشكا يحبه من اجل تلكما العينين ومن اجل حماسته الشديدة. وجلب لأبنه من الحرب هدية: كعكة بالعسل يابسة وحذاء باليا نوعا ما. واخذت الام الحذاء ولفته بقطعة قماش واخفته في الصندوق، اما الكعكة فان ميشكا كسرها بالمطرقة الى قطع صغيرة عصر ذلك اليوم على عتبة الباب، وأكل أخر فتاتة. فاستيقظ ميشكا في اليوم التالي عند شروق الشمس ، ورش شيئا من الماء الفاتر من الوعاء الحديدي على وجهه، فازال بذلك قليلا من وسخ الامس على خديه، وخرج يجري الى ساحة البيت يجفف وجهه.

كانت امه مشغولة بالبقرة، وجده جالسا على التعلية الترابية المحيطة بالكوخ. ونادى ميشكا:
«ازحف تحت مخزن الحبوب، ياوغد! كانت الدجاجة تقوقيٌ هناك واظن انها باضت.»

كان ميشكا متأهبا دائما لاداء اي خدمة لجده – وصار يحبو على الاربعة، متسللا تحت مخزن الحبوب. وخرج من الطرف الاخر وانطلق مبتعدا! وصار يعدو عبر قطعة الارض المزروعة بالخضروات ويتلفت حوله ليرى فيما اذا كان جده يراقبه. وكان مسرعا جدا فوخزت النباتات الشوكية ساقيه. وظل جده ينتظر وينتظر، حتى لم يعد في طاقته صبر للأنتظار، فقام وزحف تحت مخزن الحبوب وتلوثت ملابسه بفضلات الدجاج وهو يحدق في الظلام الرطب، وضرب رأسه ضربة مؤلمة بخشبات أرضية المخزن وخرج زاحفا من الجهة الأخرى.

«يالك من بارع ياميشكا ! تبحث هنا وهناك ولم تجد شيئا! لاريب ان الدجاج لايبيض في

مثل هذا المكان !لابد أن البيضة هناك ، تحت الصخرة. اين ذهبت يامحتال؟»

ولم يسمع الجد جوابا... فنفض الفضلات عن سرواله، بعد أن خرج من تحت المخزن واغمض عينيه نصف اغماضة وحدق طويلا نحو البركة، فرأى ميشكا ، وهز قبضته وأحاط الأولاد بميشكا وأمطروه باسئلتهم: «هل كان ابوك في الحرب؟»

طبعا، كان!»

وماذا كان يعمل هناك؟»

«يعرف الجميع انه – كان يقاتل!»

«كلامك سخف!... كان يقصع قملا، ويقضم عظاما ويمتص النخاع قرب المطبخ!»

وانفجر الاولاد ضاحكين، يشيرون باصابعهم اليه ساخرين وهم يتواثبون حوله. فاغتاظ ميشكا كثيرا واوشك ان تنهمر دموعه، عندما القى اليه فيتكا ابن الكاهن سؤالا آخر مؤلما «هل ابوك صالح؟»

«قال ميشكا: لا ادري...»

«حسنا، لنا ادري هو حرس وطني قال لي أبي صباح هذا اليوم انه باع روحه الى الشيطان وقال لي شيئا أخر ايضا انهم سوف يشنقون جميع الحرس الوطني.

وسكت جميع الاولاد، وشعر ميشكا ان قلبه يغوص. يشنقون اباه – لماذا؟ واطبق اسنانه وقال:

«ابي عنده بندقية كبيرة وسيقتل كل الاعداء بها!»

واتخذ فيتكا وقفة مستبدة وقال بلهجة المنتصر:

«لا، لن يفعل! وابي لن يمنحه البركة المقدسة، وبدون تلك البركة لن يستطيع الذهاب الى اي مكان، ولايستطيع عمل اي شئ!...»

وأتسع منخرا بروشكا. ابن صاحب الحانوت، ودفع يديه في صدر ميشكا وزعق قائلا:

«لاتتفاخر بابيك! جاء الى ابي اثناء الثورة ليأخذ منه اشياء، فقال ابي: سالقن فوما الراعي درسا حالما نسترد السلطة!»

وضربت ناتاشكا، اخت بروشكا، الارض بقدمها قائلة:

«اضربوه ياالاولاد، ماذا تنتظرون؟»

«اضربوا اللعين!..

«اضربه جيدا يابروشكا!»



ولوح بروشكا بعصا في يده وساط ميشكا على كتفه، ومد فيتكا رجله فتعثر ميشكا وانقلب على ظهره. واخذ الاطفال جميعا يصرخون وذهبوا اليه، وزعقت ناتاشكا وخدشت رقبته باظافرها، وركله احدهم، ركلة مؤلمة في بطنه.

ودفع ميشكا عنه بروشكا وهب واقفا.. وصار يراوغ جيئة على الرجل وذهابا كالارنب التي تحاول الخلاص من كلاب الصيد، وانطلق الى البيت. وصفر الاولاد وراءه ساخرين ورموه بالحجارة ولكنهم لم يتبعوه.

واستعاد أنفاسه عندما القى نفسه في نباتات القنب الخضر. وجلس على الأرض الرطبة ذات العبير، ومسح الدم من رقبته المخدوشة وانخرط باكيا. وحاولت الشمس ، فوق رأسه أن تلقي نظرة على وجهه من بين الاوراق، وجففت دموعه على خديه وقبلت شعره الاحمر الاشعث بحنان كأنها امه.

جلس هناك طويلا حتى جفت دموعه في عينه، ثم نهض وسار بطيئا في باحة البيت.

وكان ابوه ، تحت الظلة ، يزيّت عجلة العربة. وقد انزلقت قبعته على قفا رقبته ، وكانت شرائطها مدلاة، وكان يلبس قيصا صوفيا.. بخطوط زرق وبيض. تقدم ميشكا ووقف قرب العربة، وظل صامتا فترة طويلة، واستجمع في النهاية شجاعته ولمس ذراع ابيه وسأله هامسا:

«ابي ، ماذا كنت تفعل في الحرب؟»

ابتسم ابوه في شاربه الاحمر وقال:

كنت أقاتل ياولدي!»

«ولكن الاولاد يقولون انك كنت تقتل القمل!»

وخنقت العبرات ميشكا مرة اخرى، وضحك ابوه والتقطه في ذراعه وقال:

«انهم يهرفون ، ياولدي الصغير العزيز. ابحرت في سفينة – سفينة كبيرة من التي تبحر في البحر. ابحرت عليها وبعد ذلك ذهبت للقتال.» .

«ومن حاربت؟»

«حاربت الاعداء ياحبيبي. أنت مازلت صغيرا ، لذلك يجب أن اذهب الى الحرب من أجلك. وهذا هو ماينشدونه في النشيد الذي تعرفه...

وابتسم الاب وهو ينقر بقدمه لضبط التقسيم، ثم راح، بهدوء ينشد:

ولدي ، ياولدي الحبيب،
انت لن تذهب الى الحرب،
ابوك الذي سيذهب
فهو كبير مسن،
وحان موعد وطنه...
وانت صغير..

ونسي ميشكا الاولاد وهزءهم الكريه، وضحك– لان شارب ابيه برز فوق شفته مثل مقشة امه التي تصنعها من الاغصان، وكانت شفتاه تخرجان اصواتا تتمطق، وكان فمه فاغرا مثل ثقب اسود مستدير.

وقال ابوه: لاتؤخرني ياميشكا، ساصلح العربة، وفي المساء عندما تذهب الى الفراش ، سوف اخبرك كل شيء عن الحرب!

وانتشر النهار مثل طريق طويل مهجور في السهوب ثم غربت الشمس، وعاد قطيع من

الخيل يسوقها راع في شارع القرية، وخمد الغبار بعد ان مرت و بزغت أول نجمة صغيرة حية في السماء التي سادها الظلام.

ونفد صبر ميشكا، ولكن امه، انشغلت بحلب البقرة مدة طويلة، كأنها قد تعمدت ذلك، ثم ذهبت الى السرداب وظلت منشغلة هناك ساعة تقريبا.

«هل نتناول عشاءنا في الحال؟.. ظل ميشكا يضايقها «في الوقت المعتاد، لماذا جعت فجأة؟»

ولكن ميشكا لم يتزحزح عنها شبرا: وذهبت الام الى السرداب - وتبعها، وذهبت الى المطبخ -وكان وراءها. التصق بها، كالطفيليات، يدور حولها ببطء متعلقا بثيابها.

«م..ا.. ا..ما. هذا وقت العشاء!»

«كف عن هذا - انت تلتصق بي كالجرب. اذا اردت لقمة، خذ قطعة خبز وامضغها جيدا.»

ولكن ميشكا لم يكف. ولم يقلل من الحاحه حتى بعد ان تلقى ضربة من امه على رأسه.

وازدرد عند العشاء شيئا من الحساء بسرعة وانطلق رأسا الى الردهة. والقى سرواله خلف الصندوق واندس في الفراش التماسا للدفء تحت اللحاف المرقع، منتظرا اباه ان يأتي ليقص عليه حكايات عن الحرب.

وجاء جده وجثا على ركبتيه أمام الايقونات وتلا صلاته هامسا وسجد على الارض. ورفع ميشكا رأسه: عندما انحنى جده، تألم ظهره واسند نفسه باصابع يده اليسرى على الواح الارضية، وعندما ضرب جبينه بالأرض... ضرب ميشكا الجدار بمرفقه..

وتمم جده صلاته، وانحنى رأسه وارتطم بالأرض - فضرب ميشكا الجدار على إثر ذلك. وغضب جده والتفت الى ميشكا:

«ساضربك بعد قليل ايها الشيطان! اغفر لي ياربي!.. اذا ضربت معي مرة اخرى، سوف اضربك مرة او مرتين!»

ساءت الأمور آنذاك، عندما دخل الاب الى الردهة. وسأل ميشكا: لماذا انت نائم على هذا الفراش؟»

«انا انام مع امي.»

وجلس الاب على حافة السرير واخذ يفتل شاربه صامتا وبعد ان فكر قليلا قال:

«ولكني هيأت لك مكانا مع جدك.»



«لن أنام مع جدي!»

«لماذا؟»

لان في لحيته رائحة تبغ مزعجة.»

ثم عاد يبرم شاربه وتأوه قائلا:

«لا ياولدي، لابد ان تنام مع جدك.

وسحب ميشكا اللحاف فوق راسه وصار يختلس النظر بعين واحدة وقال بلهجة متألمة مغتاظة:

«انت نمت البارحة في مكاني، واليوم ايضا.. نم انت مع جدي!» ثم جلس في الفراش واخذ راس ابيه بين يديه وهمس قائلا:

«نم انت مع جدي ، لاني متأكد أن أمي لن تنام معك. رائحتك فظيعة من التبغ ايضا!»

«حسنا، اذن سأنام مع جدك ، ولكن لن أقص عليك أية قصة عن الحرب.»

ونهض الأب، وذهب الى المطبخ.

«بابا!»

«نعم؟»

«حسنا، ثم انت هنا، اذن؟» تأوه ميشكا وهو ينهض «ولكن ستحكي لي عن الحرب، اليس كذلك؟»

«بالتأكيد سأحكي لك.»

رقد الجد قرب الجدار وميشكا على حافة السرير. ثم جاء الأب بعد برهة قصيرة ووضع كرسيا بلا مسند قرب السرير وجلس واشعل سكارة صغيرة ذات رائحة كان قد لفها.

«هكذا كان الامر... تتذكر.. كان حقل الحنطة العائد لصاحب الحانوت في يوم من الايام وراء ساحة دراسة الحنطة؟»

تذكر ميشكا كيف كان يذهب الى حقل الحنطة العالية ذات الرائحة الطيبة يتسلق الجدار الحجري عند ساحة دراسة الحنطة ثم يذهب مباشرةإلى الحقل وكانت نباتات الحنطة تخيم فوق رأسه وسنابلها السود الشعثاء تخز وجهه. يشم فيها رائحة الغبار والبابونك وريح السهوب. وتقول له أمه:

«لاتذهب بعيدا في حقل الحنطة والا ضعت هناك!» وتوقف الاب عن الكلام ثم قال وهو يمسد رأس ميشكا:

«وهل تتذكر كيف كنا نسوق معا ونذهب الى ماوراء تل الرمل، كانت لنا قطعة حنطة هناك...»

استذكر ميشكا ذلك ايضا: وراء تل الرمل، وكان يمتد على طول الطريق شريط ضيق من الحنطة. ويصل ميشكا وابوه الى هناك ويجدان الماشيةِ قد سحقته. وكانت السنابل قد تمزقت في اكوام موحلة، اما السيقان الخالية فكان النسيم يهزها. وتذكر ميشكا كيف كان يقف ابوه، الضخم، القوي، عابسا واالدموع تسيل على خديه المغبرين. ويبكي ميشكا ايضا، وهو ينظر اليه.

وعند العودة، سأل ابوه زارع البطيخ:

«قل لي، يافيدوت، من الذي سحق حنطتي؟»

ويصمت زراع البطيخ واجابه قائلا:

«صاحب الحانوت كان يسوق ماشيته الى السوق ويجعلها تمشي عمدا على حنطتك...»

... وقرّب الاب كرسيه اكثر، وأستانف قصته:

«اغتصب صاحب الحانوت والاغنياء الاخرين جميع الاراضي، ولم يبق للفقراء شيْ يزرعون فيه حبوبهم. حدث الامر في كل مكان وليس في قريتنا وحدها. سحوقنا بشدة في تلك الأيام المريرة. ولم استطع كسب عيشنا، فاصبحت راعيا ثم استدعيت للجيش. وكان الامر سيئا.. ثم تبدلت الاوضاع واخذنا الارض. ولكن الاقطاعيين رفعوا بنادقهم وأعلنوها حربا على الفلاحين وعلى العمال ايضا.. هل تتابع كلامي ياولدي؟

وجاء القائد وانهض الناس كما ينهض الفلاح الارض ويقلبها بالمحراث. وجمع الجنود والعمال، وهزم المناوئين هزيمة منكرة. وجعلنا ريشهم يتطاير كالغيوم! وصرنا حرسا للوطن. وكنت واحدا منهم وعشنا في بناية ضخمة، كانت ممراتها، ياولدي، طويلة جدا، وفيها غرف كثيرة، تضيع فيها بكل سهولة.

وكنت ذات ليلة واقفا احرس عند المدخل. كان الجو باردا في الباحة، وكنت لابسا معطفي فقط. وكانت الريح تحز كالسكين... خرج في ذلك الوقت من المبنى الكبير، رجلان وسارا نحوي ولما اقتربا مني عرفت احدهما... كان القائد نفسه.. جاء الي وسألني بلطف!

«الا تشعر بالبرد هاهنا، يامقاتل؟..

«فقلت له: لا سيدي القائد، لن نجعل البرد-ولا اي نوع من الاعداء يغلبنا، لم تتسلم السلطة في ايدينا من اجل ان نعيدها الى مناوئينا!..

وضحك وصافحني بقوة، ثم سار هادئاً في طريقه نحو الباب.»

ويصمت الاب، ويخرج محفظة من جيبه ويفتح ورقة، ويشعل عودا من ثقاب، ويرى ميشكا على شاربه الكث دمعة، مثل قطرة ندى معلقة على ورقة ابرية في الصباح الباكر.

«هذا هو الرجل. كان يهتم بالجميع، وكان جندي عزيز الى قلبه... وكنت اراه دائما، يمر بي وينظر الي ويبتسم وسألني:

«الاعداء اذن، لن يغلبونا، اليس كذلك؟»

«ابدا، سيدي القائد!» كنت اجيبه.

وسارت الامور كما قال، ياولدي، وصارت الارض لنا وكل شيْ وعندما تكبر لاتنسى ان اباك كان بحارا وحارب اربع سنوات طويلة من اجل الوطن. في ذلك الوقت ساكون ميتا، فسوف يموت القائد، ولكن القضية ستعيش الى الابد. وعندما تكبر، سوف تدافع عن الوطن، كما حارب ابوك اليس كذلك؟»

وصاح ميشكا: نعم، سوف احارب!

ووثب على الفراش واراد ان يلقي ذراعيه حول رقبة ابيه ونسي ان جده كان نائما هناك، فداس على بطنه.

وتأوه الجد، ومد يده، واراد ان يسحب ميشكا من شعره، ولكن الاب اخذ ميشكا بين ذراعيه وحمله خارج الحجرة وهكذا نام ميشكا بين ذراعي ابيه. فكر اولا ، مدة طويلة بأبيه وجماعته الكثيرين، وعن الحرب والسفن، وسمع، في نومه، اصواتا خفيفة، وشم رائحة العرق الطيبة والتبغ الخام، ثم انطبقت عيناه، كأن احدا قد ضغط جفنيه براحتي يده.

ونام نوما خفيفا، فحلم بمدينة فيها شوارع فسيحة، ودجاج يستحم باكوام الرماد، وكان عدد الدجاج في المدينة يفوق عدده في قريته . وكانت البيوت كما وصفها له ابوه :كوخ هائل مسقف بقصب جديد، وعلى المدخنة مدخنة اخرى، وعليها مدخنة – وعلى الأخيرةمدخنة تلمس السماء.

وكان ميشكا يمشي في الشارع، ورأسه مرفوع وهو يتفرج على البيوت، عند ذلك تقدم اليه فجأة رجل هائل: «ياهذا، ياميشكا، لماذا تتسكع هنا ، ولاتعمل شيئا؟» سأله الرجل بلطف جم،

«ارسلني جدي لكي ألعب... اجاب ميشكا

«وهل تعرف من انا؟»

«لا ، لااعرف...»

«انا السيد القائد!....»

واخذت ركبتا ميشكا ترتجفان من الخوف. واراد ان يهرب، ولكن الرجل اخذه على ذراعه وقال:

«ميشكا، انت لاتمتلك ذرة من خجل، فأنت تعرف انني أحارب من اجل الوطن والشعب، فلماذا لم تلتحق بجيشي.؟»

«جدي لايسمح لي.» اجاب ميشكا مدافعا.

«انا لا ادري عن ذلك شيئا، ولكننا بدونك ينقصنا رجل! يجب ان تلتحق كأحد جنودي، وسوف ينتهي كل شئ!»

ثم تناول ميشكا يده وقال بحزم قاطع:

«حسنا، اذن سوف التحق دونما استئذان جدي، وسوف احارب من اجل الشعب والوطن. واذا اخذ جدي يضربني من اجل ذلك، عليك ان تدافع عني!»

«سوف ادافع عنك بلا ريب!» قال السيد القائد وسار، في الشارع، وشعر ميشكا بالسعادة تملأ روحه. حتى لم يكن يتنفس، واراد ان يصيح ولكن لسانه التصق بسقف حلقه.

وجفل ميشكا في فراشه، ورفس جده، واستيقظ وشخر جده في نومه، وتمطق بشفتيه. وكانت السماء في الخارج تبهت، وراء البركة، والريح في الاعالي تجرف الغيوم من الشرق كالزبد الوردي.

ومنذ ذلك الوقت فصاعدا، كان الاب، يسرد على ميشكا، كل مساء، اشياء اخرى عن الحرب، وعن القائد، وعن اماكن مختلفة ذهب إليها.

في مساء يوم السبت، جاء الحارس برجل قصير يلبس معطفا، وقال يخاطب الجد:

«جئتك ياجد بأحد الموظفين ليقيم في منزلك. جاء من المدينة وسوف يمضي الليلة هذه معكم. فقدم له العشاء، ايها الجد».

هطل المطر طوال النهار وغطت السماء غلالة رمادية زرقاء، وتجمعت برك في باحة البيت وجرت في الشارع سواق يسابق بعضها بعضا.

ولم يعمل ميشكا شيئا سوى الجلوس في البيت. وعندما بدأ الظلام تاهب الجد والاب للخروج واعتمر ميشكا قبعة جده المستدقة الرأس وانطلق الى الشارع ليلتقي ببعض الاولاد..

وفي صباح اليوم التالي سمعوا صوت الموسيقى الخافت بعيداً وهم جالسين الى مائدة الافطار. والقى الاب ملعقته ومسح شاربه وقال:

«لابد انها جوقة عسكرية!»

ووثب ميشكا عن المصطبة الى خارج البيت كالبرق. واصطفق الباب خلفه عند المدخل وسمع وقع اقدامه وهو يركض خارج النافذة.

وخرج الاب والجد الى باحة البيت واطلت الام بنصف جسمها من الشباك.

كان في الشارع رتل من الجنود مندفعة بالموجة الخضراء وفي مقدمتهم كان الموسيقيون ينفخون في ابواقهم الضخمة ويقرعون طبولهم، وساروا في القرية كلها. وجحظت عينا ميشكا. وانفعل كثيراً فصار يدور حول المكان، ثم انطلق نحو الجوقة وشعر بنوع من الاحساس البهيج يرن في صدره ارتفع الى بلعومه... وحدق الى وجوه الجنود الفرحة، المغبرة، والى الموسيقيين وهم ينفخون بابهة عظيمة، وقرر فجأة وفي الحال: سأذهب واقاتل معهم! وتذكر حلمه، وبث ذلك في نفسه شجاعة اكثر، ومسك جعبة عتاد الرجل الاخير.

«اينَ انتم ذاهبون؟ للقتال؟»

«واي مكان غيره! طبعاً للقتال»

«ولماذا تقاتلون؟»

«من اجل الوطن، ياصغيري! تعال هنا في الوسط»

ودفع ميشكا في وسط الصف، وضحك احدهم وفرك شعره الاشعث، وأخرج جندي اخر قطعة حلوى من جيبه ووضعها في فم الصبي. وصاح صوت من ساحة القرية:

«قـ....... ف!»

ووقف الجنود ثم انتشروا في الساحة وجلسوا في ظل سياج المدرسة. وتقدم جندي طويل حليق، يعلق حربة في حزامه، نحو ميشكا. ولوى شفتيه في ابتسامة، وسأله:

«ومن اين اتيت؟»

وطافت على وجه ميشكا هيأة الجد، ورفع سرواله الذي نزل



«سوف اقاتل معكم؟»
وصاح احد الجنود :
«اتخذه مساعداً لك ياآمر الكتيبة؟»
وانفجروا حوله ضاحكين ورمش ميشكا مرات عديدة ولكن الجندي ذا الحرية عبس وصاح بقوة :
«ولماذا تنهقون ايها الحمير؟ طبعاً سناخذه ولكن بشرط» ..
والتفت الى ميشكا وقال : عندك حمالة كتفية واحدة تحمل سروالك وهذا غير مسموح به ، وغير لائق ! انظر إلي ، انا لدي حمالتان ، وكذلك جميع الجنود . اركض الى البيت وقل لامك ان تخيط لك حمالة اخرى ، وسوف ننتظرك هنا» ..
ثم التفت نحو السياج ونادى مبتسماً : تيشجين ، اذهب واجلب لهذا الجندي معطفاً وبندقية !»
ونهض احد الجنود المستلقين تحت السياج وحياه واجاب قائلاً :
«نعم سيدي» .. واسرع ماشياً مع السياج
«هيا ، اركض سريعاً ! ولتخيط لك امك حمالتين جديدتين !»
ونظر ميشكا الى الأمر بحزم :
عليك ألا تخدعني..
«ماذا تقول ؟ انا لا افعل ذلك ابداً !»
كانت المسافة غير قليلة من الساحة الى بيت ميشكا وكان يلهث بشدة عندما وصل الباب ولم يستطع استرجاع انفاسه ولو برهة . واقترب من الباب ، وخلع سرواله وهو يركض ، وتعرت ساقاه ، وانطلق في البيت كالاعصار بكل قوته .
«ماما ! بنطلوني ! خيطي له حمالة اخرى؟»
كان السكون مخيماً على البيت وخرج ميشكا راكضاً الى باحة البيت وساحة الدريس والبيدر ، وارض الخضروات لا اباه ولا امه ولا جده .
وانطلق نحو الردهة ،وقعت عيناه على كيس . واقتطع شريطا بالسكين ، ولكن ليس لديه الوقت ليخيطه ولايعرف كيف يكون ذلك على أية حال فربطه سريعاً بعقدة في البنطلون ، والقاه على كتفه وربط الطرف الاخر من الامام ، وركض خارجاً الى الباحة .
«اينسيموفنا؟»

«نعم ؟»

«قولي لاهلي لن احضر للغداء في البيت؟»

«واين ستذهب ، ايها الطائش؟»

ولوح ميشكا بذراعه :

«سوف التحق بالجيش؟»

ثم بلغ الساحة راكضاً ووقف ساكناً لم يجد احداً فيها تحت السياج ، اعقاب سيكاير ملقاة على الارض ، وعلب خالية ، لفائف سيقان من قماش ممزقة وسمع من طرف القرية البعيد دوي الموسيقى ووقع اقدام الجنود المتلاشي السائرين في الطريق المعدل .

وانفجرت عبرة في بلعوم ميشكا ثم بكى ، وانطلق بكل قوته يتبعهم كان من الممكن ان يدركهم لولا ان كلباً اصغر ، شديداً ، امام باحة بيت الدباغ ، كان مستلقياً في طريقه مكشراً عن انيابه وهو يزمجر بوجهه . وعندما دار الى شارع اخر ، لم تعد الموسيقى تسمع ، ولا وقع اقدام الجنود .

• • •

دخلت القرية بعد يومين ، مفرزة من اربعين رجلاً يلبسون احذية رمادية وسترات عمل مدهنة وجاء ابو ميشكا الى البيت يتناول الغداء وقال لجده :

«هيْ الحبوب ياأبي في المخزن لقد وصلت مفرزة جمع الحبوب» .

وكان الجنود يتنقلون من باحة الى اخرى ، ووينحنون الارض في السقائف بحرابهم ويجدون الحبوب المخفية ويحملونها في عرباتهم إلى المخزن العام

وجاءوا الى بيت رئيس اللجنة الجديد ايضاً وسال جندي يدخن غليوناً الجد قائلاً :

«دفنتم حبوبكم ايها الجد ؟ اعترف لنا !»

ومسد الجد لحيته وقال مفتخراً :

وماذا ؟ نفعل ذلك ؟ كل شيْ يهون في سبيل الوطن ودخلوا المخزن . وفحص الجندي ذو الغليون صناديق الحبوب بعينيه وابتسم .

«حملوا الحبوب من هذا الصندوق ، ياجدي ، والباقي لكم طعاماً وبذوراً» .

وشد الجد الحصان العجوز الى العربة وملأ ثمانية اكياس ولوح بيده وساق العربة الى المخزن العام . وأسفت الأم لما رأت الحبوب تذهب وبكت قليلا وساعد ميشكا جده في نقل الحبوب الى الاكياس ، ثم ذهب ليلعب مع فيتكا ابن الكاهن .

وما كادا يجلسان في المطبخ وينشران الخيول التي صنعاها من الورق على الارض حتى دخل اولئك الجنود وركض الكاهن من الردهة متعثراً بردائه لاستقبالهم ، ولكن الجندي ذا الغليون قال بحزم :

«لنذهب الى مخزن حبوبكم ! اين تحفظون الحبوب ؟»

ووثبت زوجة الكاهن من الردهة وقالت بابتسامة متملقة :

«تصوروا ايها السادة ليس لدينا حبوب من اي نوع !... لم يخرج زوجي لحد الآن ليجمع الحبوب من الابرشية» .

«هل عندكم سرداب ؟..

«لا ، ليس لدينا .. نحن نحتفظ بالحبوب في المخزن ..



تذكر ميشكا كيف كان ينزل مع فيتكا الى السرداب الفسيح من المطبخ ، فالتفت الى زوجة الكاهن وقال :

«ولكنني كنت انزل مع فيتكا الى السرداب من المطبخ ، الا تتذكرين ؟»

وشحب وجه زوجة الكاهن وقالت ضاحكة :

«انت واهم ياعزيزي .. اخرج يافيتكا والعب مع ميشكا في باحة البيت» .

«وكيف تنزلون اليه ، ايها الشاب؟»

«وكيف تصدق هذا الولد الغبي ؟ أؤكد لكم ، ايها السادة ليس لدينا اي سرداب !» قالت زوجة الكاهن محتجة على كلام الصبي .

والتفت الكاهن وهو يلم مسوح ردائه وقال :

«الا تريدون شيئاً من طعام ، دعونا نذهب الى الردهة !»

ومرت زوجة الكاهن بجانب ميشكا وقرصته قرصة مؤلمة في ذراعه ، وابتسمت بلطف .

«اخرجوا ، يااطفال ، والعبوا في الباحة» .

وتغامز الجنود فيما بينهم ، وداروا في المطبخ ، ضاربين الارض بأخمص بنادقهم وازاحوا المنضدة التي قرب الجدار ورفعوا الحصر من الارض ورفع الجندي ذو الغليون لوحة ارضية وحدق في السرداب وهز راسه :

«يجب ان تخجلوا من انفسكم ! تقولون ليس لدينا اي حبوب مهما كان نوعها في حين ان السرداب مليءْ بالحنطة !..»

ونظرت زوجة الكاهن الى ميشكا بعينين مرعبتين ، فاصابه الذعر واراد ان يجري الى البيت فنهض وخرج الى باحة البيت وركضت زوجة الكاهن خلفه ومسكته من شعره وهي تبكي غضباً ، وراحت تجره على الارض .

وتخلص من قبضتها وانطلق الى البيت دون ان يلقي نظرة الى الوراء واخبر امه بكل شيْ والدموع تخنقه وارتعبت الأم وصاحت :

«ماذا سأفعل بك ؟ ابعد عني قبل ان اصفعك على أذنك»

ومر اسبوع ، وضاق صدر ميشكا ، اذ لم يكن احد يلعب معه ابتعد اطفال الجيران عنه وصاروا يلقبونه بالنذل . واضافوا الى ذلك شيئاً اخذوه عن الكبار ويطلقونه عليه :

«ايها المشاكس الصغير ، ايها الاحمق .. انتظر !» عند عودة ميشكا من البركة متأخراً عصر يوم من الأيام رأى اباه يقول شيئاً بصوت حاد وامه تبكي وتعول ، كأن احداً من العائلة مات . تسلل ميشكا من الباب ورأى اباه يلف معطفه ويلبس حذاءه الجلدي الطويل .

وابتسم الاب وقال : «اهتم بالبيت ياولدي» .. سأذهب الى الحرب ،
«سأذهب معك ياأبي !»
وشد الاب حزامه ، ولبس قبعته ذات الاشرطة «انت عظيم ! ولكن لايمكن ان نذهب معاً مرة واحدة عندما ارجع ، ستذهب انت‌وإلاّ من سيحصد الحبوب عندما تنضج ؟ امك مشغولة بالبيت ، وجدك اصبح عاجزاً» .
كبح ميشكا دموعه ، عندما ودع اباه واستطاع ايضاً ان يبتسم وتعلقت امه برقبة ابيه ، كاليوم الذي عاد فيه ، ثم تخلص منها ، وكان الجد يدمدم ، وقبل الجندي وهمس في اذنه :
«فوما ، ياولدي ! الا يمكن ان تبقى ؟ لعلهم يستطيعون القتال من دونك أفرض انهم قتلوك ، ماذا سنفعل اذن ؟»
«اترك هذا ، ياأبي لافائدة من هذا الكلام من سيحمي الوطن ، اذا اختبأ كل رجل وراء امرأة؟»
«اذهب اذن ، اذا كنت تدافع عن الحق» ..
والتفت الاب جانباً ومسح دمعة ورافقوا الأب الى مكان تجمع المقاتلين كان في الساحة عشرون رجلاً او اكثر ، مجتمعين حاملين بنادقهم . كان الاب ايضاً يحمل بندقيته وبعد ان قبل ميشكا اخر مرة سار مع الاخرين في الطريق المؤدي خارج القرية .
وعاد ميشكا الى البيت مع جده . وتخلفت الأم وراءهما وهي تمشي بخطى غير ثابتة . ونبح كلب في القرية ، وكانت بعض الانوار هنا وهناك . ولف القرية ظلام دامس مثل امرأة متلفعة بفوطة سوداء ثم بدأت السماء ترذ مطراً خفيفاً ، والتمع برق فوق السهوب وهدر رعد .
ثم وصلوا البيت اخيراً . وسأل ميشكا الذي كان صامتاً طوال الطريق جده قائلاً :
«جدي ، من سيحارب ابي؟»
«اسكت ، لاتزعجني !»
«جدي !»
«نعم ؟»
«من سيحارب ابي ؟»
ودفع الجد المزلاج في مكانه واجابه :
«الاعداء الذين هجموا علينا ، عصابات الاشرار في رأيي انهم لصوص ذهب ابوك ليحارب هؤلاء» .

«وهل هم كثيرون ، ياجدي؟»
«يقال ان عددهم مئتان ... اذهب ياولدي لقد تأخر وقت نومك ...»
وفي الليل اقلقت نوم ميشكا اصوات ، فاستيقظ وتحسس الفراش حوله – ولم يجد جده !
«جدي ، اين انت !»..
«اسكت وعد الى نومك !».
نهض ميشكا وتحسس طريقه في الظلام الى الشباك . كان جده في ملابسه الداخلية فقط جالساً على المصطبة ورأسه خارج الشباك المفتوح ، وهو ينصت وانصت ميشكا ايضاً ، وفي هدأة الليل سمع ، خارج القرية بعض طلقات سريعة يتبعها وابل من طلقات نارية منتظمة :
طق !... رات تات ... طق – طاق ! يبدو كأنهم كانوا يدقون مسامير بالمطارق وانتاب ميشكا خوف فالتصق بجده وسأله :
«هل هذا هو ابي الذي يطلق الرصاص ؟..
لم يجبه جده ، ولكن الأم بدأت مرة اخرى تبكي وتنتحب واستمر اطلاق الرصاص حتى الفجر ثم هدأ كل شيْ وتكور ميشكا على المصطبة ونام نوماً عميقاً غير مريح وجاءت عند الفجر جماعة من الخيالة في الطريق. المؤدي الى مقر تجمع المقاتلين وايقظ الجد ميشكا ، وخرج هو نفسه الى باحة البيت .
ارتفع الدخان في فناء المقر كعمود اسود ، وكانت السنة اللهب تلعق الجدران وكان الفرسان يعدون بخيولهم في الشارع جيئة وذهاباً وجاء احدهم الى باب بيتهم ونادى جده :
«هل عندك حصان ، ايها العجوز؟»
«عندي ...»
«اذن شد عليه عدته واخرج به الى ماوراء القرية ستجد جماعتك في الادغال انقلهم في عربتك الى البيت ، ودع اقرباءهم يدفنونهم !»
سرعان ماشد الجد عدة حصانه ، واخذ اللجام بيد مرتجفة وانطلق به عدواً . وعلت فوق القرية صرخة عندما نزل الاعداء عن خيولهم وحملوا ملْ اذرعهم تبناً من المتابن واغناماً مذبوحة وقفز احدهم عن حصانه في ساحة بيت انيسموفنا ودخل بيتها . وسمع ميشكا صراخها وخرج اللص راكضاً الى الشرفة وحربته تقرقع وجلس ونزع حذاءه ثم مزق فوطة شال اينسموفنا الجميل الالوان الى نصفين ولف قدميه بنصفي الشال .
ودخل ميشكا الى الردهة ونام على الفراش وغطى رأسه بالوسادة ثم نهض عندما سمع صرير

بابهم . وخرج راكضاً الى الشرفة ورأى جده ولحيته مبللة بالدموع وهو يقود الحصان الى باحة البيت .

تمدد على العربة رجل حافي القدمين ذراعاه مفتوحان وراسه يعلو ويهبط ضارباً مؤخر العربة ، ودم اسود كثيف يسيل على الالواح .

وخارت ركبتا ميشكا عندما ذهب الى العربة والقى نظرة على الوجه المبضع بالحربة ورأى اسنانه وخده المجروح جرحاً فاغراً عميقاً حتى العظم ، وعينيه المحلقتين المليئتين بالدم ، وقد حطت على احدهما ذبابة كبيرة خضراء .

ولم يتعرف ميشكا على الجثة لحد الان وارتجف مرتعباً عندما نظر الى الاسفل ورأى الخطوط الزرق والبيض على قميص البحارة وتداعى كأن احداً ضربه خلف ركبتيه ونظر مرة اخرى بعينين متسعتين الى الوجه الاسود الساكن ، ثم وثب على العربة .

«بابا ، إنهض ! حبيبي ، بابا !..» وترنح وسقط من العربة واراد ان يركض غير ان ركبتيه انهارتا تحته وزحف على اطرافه الاربعة حتى الشرفة وانبطح هناك ووجهه في الرمل .

• • •

غارت عينا الجد عميقاً في محجريهما ، وكان راسه يهتز وشفتاه تهمسان بشيء غير مسموع . وظل طويلاً يمسد شعر ميشكا صامتاً ثم القى نظرة الى الام المنبطحة في الفراش وهمس قائلاً :

«دعنا نخرج الى الباحة ياولدي ..

وقاد ميشكا من يده الى الشرفة . ولما مر ميشكا بباب الردهة اغلق عينيه وارتجف كان ابوه مسجى على المنضدة صامتاً بشكل مهيب . غسلوا الدم عنه ولكن ميشكا كان مايزال يرى عينه المليئة بالدم وعليها ذبابة كبيرة خضراء .

بقي الجد طويلاً لدى البئر يحل حبل الدلو ثم ذهب الى الاسطبل وقاد الحصان الى الخارج ومسح فمه المزبد بكمه ، ثم البسه اللجام . وتوقف مصغياً . كان حول القرية يعلو ضحك وصياح . ومر بالقرب من باحة البيت فارسان ، تتوهج في الظلام سيكارتاهما ، ويسمع صوتاهما بوضوح .

«لقناهم درساً بليغاً !... سوف يتذكرونه حتى في الاخرة !» .

وتلاشى وقع حوافر الخيل ، وانحنى الجد على اذن ميشكا وهمس :

«انا كبير ... ولا استطيع ان اركب حصاناً ... سأركبك عليه ، ياولدي ، وانطلق عليه ، بعون الله ، الى مزرعة برونين ... سوف اريك الطريق ستجد هناك الكتيبة التي مرت بقريتنا مع



الجوقة الموسيقية ... قل لهم ان يأتوا الى هنا في الحال : اخبرهم ان الاعداء هنا ! فهمت ؟»
اومأ ميشكا برأسه صامتاً . واجلسه جده على السرج وربطه عليه بالحبل لكي لاينزلق ، وقاد الحصان عبر ساحة البيدر ، ومر بالبركة ومفارز الاعداء وخرجوا الى السهب الفسيح .
«اترى مجرى الماء هناك السائر مع التل ؟ امش معه ولاتتركه الى مكان اخر !... سوف تصل مباشرة الى المزرعة . حسناً ياولدي العزيز ، اذهب اذن !»
وقبل الجد ميشكا وضربه بلطف على كتفه براحة يده.
كانت ليلة مقمرة . وجرى الحصان خبباً مدة من الزمن ولما وجد ان حمله خفيف ، تباطأ ولكن ميشكا هز اللجام وصفعه على رقبته وضربه بعقبيه فسار يعدو من غير اسراع .
وغرد طائر سلوى جريئ في وسط حقل الحنطة الناضج وتلألأ في قعر المجرى ماء الربيع ، وهبت نسمة باردة خاف ميشكا من السير وحده في السهب ، وطوق رقبة الحصان الدافئة ، والتصق به مثل كتلة صغيرة باردة وصعد التل وهبط وصعد مرة اخرى وخشي ميشكا ان ينظر الى الخلف وصار يتمتم بنفسه محاولاً الا يفكر بأي شيئ . وتجمد الصمت في اذنيه ، واغلق عينيه

بقوة وشخر الحصان نافضاً رأسه وزاد سرعته ، ففتح ميشكا عينيه قليلاً وراى تحته ، في اسفل التل ، ضوء شاحباً واحداً او ضوئين وحمل النسيم اليه نباح كلب .

وابهج قلب ميشكا لحظة شعور دافئ بالسعادة وحث الحصان بعقبيه وصاح به :

«سر يـ يـ يعاً !»

وبدا نباح الكلب اقرب ورأى على سفح التل المنحدر شبح طاحونة باهت .

«من هذا ؟ سمع صرخة تأتيه من الطاحونة . وحث ميشكا الحصان صامتاً على الجري وارتفع صياح ديك يرن فوق الحقول الراقدة .

«من هذا ؟ قف والا اطلقت النار !»

وارتعب ميشكا وسحب العنان ولكن الحصان لما شعر بوجود خيول اخرى ، صهل وحمحم ولم يأبه بسحب اللجام .

«ق .... ف !»

وثارت اطلاقات بقرب الطاحونة وضاعت صيحة ميشكا في خضم وقع حوافر الخيل . وشخر حصانه ، وشب منتصباً على قائمتيه الخلفيتين ثم سقط على جانبه الايمن . وشعر ميشكا لحظة بألم رهيب لايطاق في ساقه وماتت الصيحة على شفتيه . كان الحصان يضغط على ساقه اكثر فاكثر .

وبدا وقع حوافر الخيل يقترب وقفز فارسان من فوق حصانيهما وانحنيا على ميشكا .

«اماه ! هذا صبي صغير !»

«هل اصبناه ؟»

ودس احدهما يده في صدره وطافت في وجهه رائحة تبغ ودوى صوت فرح قائلاً : مايزال حياً ، سليماً يبدو ان الحصان كسر ساقه .

وبدا ميشكا يفقد وعيه فهمس قائلاً :

«الاعداء في القرية ... قتلوا ابي وحرقوا مقر مقاتلينا ارسلني جدي لاقول لكم ان تحضروا سريعاً» .

وحامت امام نظرة ميشكا المغبشة دوائر ملونة .. ومر به ابوه يبرم شاربه الاحمر وهو يضحك ولكن ذبابة كبيرة خضراء على عينه ثم مر جده يهز رأسه مؤنباً ، وجاءت امه ، ثم رجل ذو جبين عالٍ ، يمد يده مشيراً الى ميشكا ومثل امامه جده مرة ثانية .

«جدي !» صاح ميشكا بصوت واهن ، ورفع رأسه بجهد ثم ابتسم ومد كلا ذراعيه .

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد
٢٤٢ لسنة ١٩٨٧

السعر ١٥٠ فلساً

مطبعة سومر هاتف ٧١٩٩٧٤٣

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد

٢٤٢ لسنة ١٩٨٧

السعر ١٥٠ فلساً

مطبعة سومر هاتف ٧١٩٩٧٤٣